دور العقل و الدين فی نظريۀ كانط الأخلاقيۀ (دراسۀ نقديۀ على ضوء آراء العلامۀ الشيخ مصباح يزدی)

نجاۀ عاشورعيسى عاشور

الخلاصۀ

يدور السؤال الأساسی للبحث حول دورالعقل والدين فی كل من نظريۀ كانط الاخلاقيۀ ونظريۀ الاخلاق الإسلاميۀ من منظور العلامۀ الشيخ مصباح اليزدی "رض" . تكمن أهميۀ هذا البحث فی تسليط الضوء على جدليۀ موقع الاخلاق بين قدرات العقل الكاشفۀ عن الواجب الأخلاقی وبين الحاجۀ الى الدين الموجه لطبيعۀ وحدود هذا الواجب الأخلاقی، وهل يخضع العقل للدين أم العكس؟ لقد فرق كانط فی استعمال العقل بين النظری (المعرفه) والاستعمال العملی (البحث الاخلاقی). فالعقل فی استعماله النظری جدلی محض ومعرفته نسبيۀ، لمحدوديۀ قدراته التی لا تتجاوز العالم الحسی ؛ وعليه لا يمكنه أن يتوصل الى معرفۀ حقيقۀ الاشياء فی ذاتا كوجود الله وخلود النفس وحريۀ الارادۀ.

ولكن كانط الذی قال بامتناع (الاله) بالعقل النظری، اثبته كضرورۀ (اخلاقيۀ) بواسطۀ العقل العملی الذی يملی علينا ماينبغی ولاينبغی فعله اخلاقيا. وبذلک يعطی كانط للميتافيزيقيا بعدا قيميا اخلاقيا بخلاف النظرۀ التقليديۀ . مؤسسا الاخلاق على العقل (عقلنۀ الاخلاق) جاعلا من الارادۀ االخيرۀ الحرۀ للانسان مصدرا للقانون الاخلاقی المنزه عن ای غايۀ سوى الالتزام بـ(الواجب الاخلاقی). وعلى الرغم من أن كانط اعطى للنيۀ الخالصۀ من كل مصلحۀ اهميۀ كبيره فی اداء الواجب الاخلاقی، لم يسبقه بها احد من الفلاسفۀ كما اشار الى ذلک العلامه اليزدی نفسه، ولكن نجد كثيرا من التناقضات التی تناولتها نظريته الاخلاقيۀ.

العلامه الكبير والفيلسوف المعاصر آيۀ الله محمد تقی مصباح اليزدی فی ابحاثه حول الاخلاق ،تناول فلسفۀ كانط ونظريته الاخلاقيۀ القائمۀ على مفهومی الواجب الاخلاقی

والخير الاسمى، بالتحليل والنقد من خلال رؤية قرآنية وفلسفة اسلامية سوف يتناولها هذا البحث من خلال استعراض وجهتى النظر، باسلوب تحليلى، وصفى مقارن وصولا الى نتائج البحث المتوقعة وهى اثبات عدم واقعية التشريع الاخلاقى الذاتى القائم على العقل الخالص كما يدعى الفيلسوف الالمانى ايمانويل كانط ؛ وإثبات أن مصدر التشريع الاخلاقى الواقعى يبتنى على كاشفية العقل وهداية الوحى معا كما يوضحها العلامة اليزدى "رض" من منطلق الرؤية الاسلامية القرآنية.

كلمات مفتاحية : فلسفة الاخلاق، العقل المحض، الدين، الحكمة العملية، الواقعية، العلامه مصباح اليزدى (رض)، ايمانويل كانط .

المقدمة

هل يصلح العقل المحض أو (العقل الخالص) كما أسماه كانط لأن يشرع بنفسه القانون الأخلاقی، ولماذا؟. وكيف ينظر الاسلام الى العقل من حيث كونه مصدرا معرفيا للأخلاق من منظورالعلامة والفيلسوف المعاصر الشيخ محمد تقی مصباح اليزدی "رض".حول هذا التساؤل تدورمحاورهذا البحث، لا لأجل المقارنة بين نظرية كانط االغربية والنظرية الاسلامية الربانية، حيث لا صحة للمقارنة بين ما يصدر عن المخلوق مع الخالق، إنما تسلط الدراسة الضوء على جزئية مهمة مشتركة بين المدارس الفلسفية، مع التفاوت الكبيرفی الآراء حولها ؛ ألا وهی دور العقل كمصدر للادراک البشری فی النظريات الفلسفية . لقد صادر كانط على مسائل الميتافيزيقيا فی نظريته الواقعية الوظيفية والقائمة على مفهوم (الواجب الاخلاقی)، وآمن بها على مستوى العقل العملی دون النظری . بحسب كانط ثمة ترابط بين العقيدة والأخلاق ولكن العقيدة وفقًا له ليست سابقة للأخلاق، وإنما هی عقيدة (ميتا أخلاقية) أی تتطلبها الأخلاق القائمة على أساس العقل. «لا يمكن أن نحضر شيئا من العالم و حتّى خارج العالم فی فكرنا و نعرفه جيّدا بدون أیّ قيد و شرط، إلاّ النيّة و إرادة الخير»(كانط، ۲۰۱۷، ص۲۷)؛ لقد أراد كانط قانونا أخلاقيا ملزما و حاملا لشیء حسن فی نفسه دون أی قيد أو شرط (مصباح اليزدی، دون التاريخ، ص ۲۳۹)

تعريف الاخلاق ،العقل، الدين

أولا : الأخلاق لغة واصطلاحا، وأهم العلوم المرتبطه بها:

كما جاء فی المعجم الفلسفی لجميل صليبا الأخلاق فی الفرنسية Morale,Ethique وفی الانكليزية Morale, Ethics وفی اللاتينية ".Moralis الاخلاق فی اللغة جمع خلق وهو العادة، والسجية، والطبع، والمروءة، والدين . وعند القدماء ملكة تصدر بها الافعال عن النفس من غير تقدم روية وفكر وتكلف . فغير الراسخ من الاخلاق لايكون خلقا، كغضب الحكيم، وكذلک الراسخ الذی تصدر عنه الافعال بعسر وتأمل، كالبخيل اذا حاول الكرم". "وقد يطلق لفظ الأخلاق على جميع الأفعال الصادرة عن النفس محمودة كانت أو مذمومة، فتقول فلان كريم الاخلاق، أو سئ الاخلاق" . " وإذا أطلق على الأفعال المحمودة فقط دل على الأدب، لأن الأدب لا يطلق الا على المحمود من الخصال" (صليبا، ۱۹۸۲، ج۱، ص۴۹)

تعريف الفيلسوف والمفكر الاسلامى المعاصر آية الله محمد تقى مصباح اليزدى (رض) لمفهوم الاخلاق :«الأخلاق تستعمل تارة بمعنى الملكات الحاصلة للنفس والتى تغنيها عن التروى فى الافعال الارادية، سواء كانت فاضلة او رذيلة، وتستعمل تارة بمعنى نفس الافعال التى تستحق المدح او الذم، كما انها قد تستعمل بمعنى الافعال التى تستحق المدح فقط. والمراد هنا هو الاصطلاح الثانى، وان كان قد يراد بها كل من الاصطلاحين الاخرين لمسايرة القوم فى مصطلحاتهم»(مصباح اليزدى، دون التاريخ ب، ص ١)

ونجد فى كتاب أسس الاخلاق اشارة مهمة الى الفرق بين الخلق (الحال) و (الملكة)

" وعلى الرغم من استعمال الخلق لغة على الصفة الثابتة والملكات النفسانية . وهذا هو المراد من استعماله عادة فى علم الاخلاق، الا ان هذا المصطلح قد يستعمل بمعنى أعم فيطلق حينئذ على مجمل الصفات النفسانية التى هى منشأ الافعال الاختيارية –سواء كانت هذه الصفة ثابتة ملكة او غير ثابتة حال وبناءا على هذا المصطلح فان ما يقوم به البخيل احيانا من عطاء ولومع التكلف يعتبر عملا اخلاقيا ايجابيا" (مجتبى مصباح، ٢٠١١، ص٢٦)

إن اضافة الافعال التى تستحق المدح أو الذم الى التعريف يخرج حتما الصفات الوراثية والفطرية الصرفة والافعال االلارادية عن مفهوم الاخلاق. ؛ يقول د.محمد عبد الله دراز :"العمل اللاإرادى من الناحية الانسانية (حادث)، وان كانوا يطلقون عليه اصطلاحا: (عمل) لانه – حين نستخدم التعبير القرآنى – لن يكون بعض ماتكتسبه أنفسنا "لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ" آخرالبقرة (دراز، ٢٠٠٦م، ص ١٧٢)

أهم العلوم المرتبطة بالاخلاق فهى :

١ .علم الاخلاق :

ويسمى علم الاخلاق LaMorale بعلم السلوك، أو تهذيب الاخلاق، أو فلسفة الاخلاق Ethique، أو الحكمة العملية، او الحكمة الخلقية. والمقصود به معرفة الفضائل، وكيفية اقتنائها، لتزكو بها النفس، ومعرفة الرذائل لتتنزه عنها النفس " (راجع صليبا، ١٩٨٢، المعجم الفلسفى، ج ١، ص ٥٠، عن كتاب تهذيب الاخلاق لمسكويه) .

"وموضوعه البحث فى قيمة العمل" (المصدر نفسه ،ج٢، ص ١٦١)، وهو من العلوم المعيارية الثلاثة Sciences normatives (المنطق وعلم الجمال وعلم الاخلاق)،

"وموضوعها دراسة مظاهر العقل البشری من حيث قدرته على تأليف أحكام القيم" (المصدر نفسه)

"يبحث علم الاخلاق فی الصفات الفاضلة، والرذيله التی يمكن ان يكتسبها الانسان عن طريق الافعال الاختيارية و الارادية، وهذه الصفات هی موضوع علم الاخلاق" (مجتبی مصباح، ۲۰۰۲، ص۱۲) .

ان المدرسة الاسلامية تختلف عن المدرسة الوضعية فی تشخيصها لموضوع الاخلاق، فوفقا لفولكيه : " ان الاخلاق هی عبارة عن مجموعة من قواعد السلوک التی بمراعاتها يمكن للانسان ان يصل الى غايته لو عمل بها " (مجتبی مصباح، ۲۰۰۲، ص۱۲). ويعزی هذا الاختلاف الى الأصل الذی تذهب اليه نظرية المعرفة لكل فلسفة فی رؤيتها للانسان والكون والحياة.

۲ .فلسفة الأخلاق:

وقد لخصها العلامة اليزدی رض بقوله: " يمكننا تلخيص النتائج الحاصلة من نظرتنا السريعه حول مسائل فلسفة الاخلاق كما يلی : المسألة الاخلاقية قضية مركبة من موضوع يعبر عن فعل اختياری ناشیء عن ترجيح رغبة خاصة من بين الرغبات المتعارضة، ومن محمول يعبر عن علاقة ايجابية او سلبية بين الفعل وبين الغاية المنشودة والكمال المطلوب. ويمكن صوغ تلک القضية فی صيغة انشائية تعبر عن الالزام بأحد طرفی الفعل والترک" (مصباح اليزدی، دون التاريخ ب، ص ۳۸)

"فلسفة الأخلاق تحقيق فلسفیّ (عقلی) حول المبادیء التصوريّة والتصديقيّة لعلم الأخلاق ويُبحث فيه عن المفاهيم الأخلاقيّة وارتباطه بالواقعيّات وكذلک عن الأصول المرتبطة بقبول أوعدم قبول البيانات الأخلاقيّة"(مجتبی مصباح، ۲۰۱۱، ص۲۴.)

وقد جاء فی معجم صليبا "أما فی العصور الحديثة فان لفظ الفلسفة يطلق على دراسة المبادئ الاولی التی تفسر المعرفة تفسيرا عقليا كفلسفة العلوم وفلسفة الاخلاق " (صليبا، ۱۹۸۲، ج ۲، ص ۱۶۰.)

ثانيا : العقل لغة واصطلاحا

العقل فی اللغة هو الحجر والنهی، وقد سمی بذلک تشبيها بعقل الناقة، لانه يمنع صاحبه من العدول عن سواء السبيل كما يمنع العقال الناقة من الشرود. والجمهور يطلق العقل

على ثلاثة أوجه (الغزالى، ١٩٦١ م، ص١٦٢). الاول يرجع الى وقار الانسان وهيئته، ويكون حده انه هيئة محمودة للانسان فى كلامه واختياره وحركاته وسكناته. (راجع صليبا، ١٩٨٢، ج٢، ص ٨٤). والثانى يراد به ما يكتسبه الانسان بالتجارب من الاحكام الكلية، فيكون حده انه معان مجتمعة فى الذهن تكون مقدمات تستنبط بها الاغراض والمصالح. . والثالث يراد به صحة الفطرة الاولى فى الانسان فيكون حده انه قوة تدرک صفات الاشياء من حسنها وقبحها، وكمالها، ونقصانها. (المصدر نفسه)

أما الفلاسفة فانهم يطلقون العقل على عدة معانى أوجزها فى التالية:

أول هذه المعانى قولهم: ان العقل "جوهر بسيط مدرک للاشياء بحقائقها" (الكندى، رسالة فى حدود الاشياء ورسومها). وثانيها : قولهم ان العقل قوة النفس التى بها يحصل تصور المعانى، وتاليف القضايا والاقيسة.(المصدر نفسه، ص ٨٤–٨٥). أما المعنى الثالث: انه ((قوة الاصابة فى الحكم)) .وقد اشار)ديكارت) الى هذا المعنى بقوله: ان القاعدة الاولى لطريقته هى ان لا يتلقى على الاطلاق شيئا على انه الحق، ما لم يتبين ببداهة العقل انه كذلک . والمعنى الرابع : انه قوة طبيعية للنفس متهيئة لتحصيل المعرفة العلمية، وهذه المعرفة مختلفة عن المعرفة الدينية المستندة الى الوحى والايمان. (المصدر نفسه، ص ٨٦(

والمعنى الخامس : انه مجموع المبادئ القبلية((a priori المنظمة للمعرفة كمبدا التناقض، ومبدأ السببية ومبدأ الغائية. وتتميز هذه المبادئ بضرورتها وكليتها واستقلالها عن التجربة. (المصدر نفسه، ص ٨٦–٨٧ . (

أما المعنى السادس للعقل : انه الملكة التى يحصل بها للنفس علم مباشر بالحقائق المطلقة. ومع ان (كانت) يعلن ان معرفة هذا العقل المطلق ممتنعة، فان خلفاءه ولاسيما (شيلينغ) يقولون بامكان معرفته. (المصدر نفسه، ص ٨٧)

ثالثا : الدين لغة واصطلاحا

»الدين فى اللغة المادة، والحال، والسيرة، والسياسة، والرأى، والحكم، والطاعة والجزاء... الدين عند الفلاسفة القدماء ويطلق على وضع الهى يسوق ذوى العقول الى الخير. والفرق بين الدين والملة والمذهب، أن الشريعة من حيث أنها مطاعة تسمى دين، ومن حيث أنها جامعة تسمى ملة، ومن حيث أنها يرجع اليها تسمى مذهبا. وقيل الفرق بين الدين، والملة و، والمذهب، أن الدين منسوب الى الله تعالى، والملة منسوبة الى الرسول، والمذهب منسوب الى

المجتهد. وكثيرا ما تستعمل هذه الالفاظ بعضها مكان بعض. ولهذا قيل انها متحدة بالذات، ومتغايرة بالاعتبار» (صليبا، ١٩٨٢، ج١، ص ٥٧٢-٥٧٣).

أما فى الفلسفة الحديثة فللدين عدة معان: ١) الدين جملة من الادراكات والاعتقادات والافعال الحاصلة للنفس من جراء حبها وطاعتها لله تعالى . ٢) والدين ايضا هو الايمان بالقيم المطلقة والعمل بها، كالايمان بالعلم. ٣) الدين الطبيعى(Religion naturelle) اصطلاح اطلق فى القرن ١٨ على الاعتقاد بوجود الله وخيريته، وبروحانية النفس وخلودها، وبالزامية فعل الخير من جهة ماهو ناشئ عن وحى الضمير ونور العقل . (المصدر نفسه(

مفهوم الدين فى الاصطلاح هو الايمان بخالق الكون والإنسان، وبالتعاليم والوظائف الملائمة لهذا الايمان، وذلک فى مقابل أولئک الذين لايؤمنون بالخالق إطلاقا؛ بل يؤمنون بالصدفة والاتفاق فى خلق الظواهر الكونية. أو أنها مسببة للأسباب المادية والطبيعية. ويتالف الدين من قسمين رئيسيين:

(1 العقيدة التى تمثل الاساس والقاعدة بالنسبة للدين (الاصول.(

(2 التعاليم والاحكام العملية المنبثقة من الاسس العقائدية والملائمة لها (الفروع). (مصباح اليزدى، ٢٠٠٥، ص٩.(

ايمانويل كانط Emmanuel Kant ((1724 : 1804) رائد فلسفة الاخلاق الغربية

ولد " كانط " فى مدينة " كونجسبرغ " الألمانية عاصمة بروسيا " ألمانيا قديمًا تسمى بروسيا " يوم ٢٢ نيسان ١٧٢٤ م فى عائلة فقيرة.كان والده يمارس صناعة السروج، من " أصل اسكتلندى "، و أمه امرأة دين صالحة مما دعاها إلى تسجيل ابنها " بمعهد فردريک " الذى بقى فيه لمدة ثمان سنوات قاسية وعنيفه يصفها " كانط " بقوله " إن الخوف والرعدة يغلبانه حين يتذكر تلک الأيام".ماتت أمه وهو فى " الثالثة عشرة " من العمر وتوفى والده حين كان عمره " اثنتين وعشرين "

سنة مما يعنى تحمله لجزء من مصاريف أسرته وإعالتهم.يفسر البعض بهذه النشأة القاسية أنها سبب فى الصرامة والجدية و الإجتهاد التى كانت إحدى سمات هذا الفيلسوف إيمانويل أسمه الأول يعنى بالألمانية " الله معنا " مما يشير إلى نشأة دينية بقى فى " معهد فردريک " لمدة ثمانى سنوات،ثم التحق بعد ذلک بجامعة المدينة فى أيلول ١٧٤٠ م، درس فيها الفلسفة والرياضيات وعلم أصول الدين والفيزياء ثم اضطرته ظروفه المادية الصعبة إلى

طلب الرزق من " مهنة التدريس " تابع دراسته فى حتى حصل فى عام ١٧٥٥ حصل على " شهادة الماجستير " وعمل مدرسا فى الجامعة التى تخرج منها،بعد ذلك حصل على"

درجة الدكتوراه فى الفلسفة " سنة ١٧٥٥ م تولى "عمادة كلية الآداب "خمس مرات وكان" مديرا للجامعة " مرتين وفى هذه الفترة أصدر أهم الأعمال الفلسفية " كنقد العقل الخالص " و " نقد العقل العملى " و ميتافيزيقيا الأخلاق " يعتبر فيلسوف وعالم فى آ ن واحد برز فى أغلب المجالات " الفيزياء الفلكية " و " الرياضيات " و "الجغرافية " و " علم الإنسان " و " الاخلاق " و أشتهر بالنقد و محاولة تأسيس "علم الأخلاق " و ترسيخ مفهوم السلام بين الشعوب يعتبر أحد أكثر المفكرين المؤثرين فى المجتمع الغربى والأوروبى الحديث والفيلسوف الرئيس الأخير فى عصر التنوير. (راجع عبد الرحمن، ٢٠١٧، ص٧٤٦) .

١ .العقل فى الفلسفة الكانطية (العقل المحض والعقل العملى)

"يطلق (كانت) هذين الاصطلاحين على كل ماهو قبلى فى الفكر أى على الملكة المتعالية التى تتضمن مبادئ المعرفة القبلية المستقلة عن التجربة. فاذا نظرت الى العقل من جهة اشتماله على المبادئ العقلية للمدركات العلمية كان عقلا نظريا او تامليا Raison) (theorique ou speculative، واذا نظرت اليه من جهة

اشتماله على المبادئ القبلية لقواعد الاخلاق كان عقلا عمليا .(Raison pratique)

وللعقل عند (كانت) معنى أخص، وهو اطلاقه على الملكة الفكرية العالية التى تولد فينا بعض المعانى المجردة كمعنى النفس، ومعنى العالم، ومعنى الله، وهو بهذا المعنى ليس مقابلا للتجربة، وانما هو مقابل للذهن والفهم ((Entendement وله ناحية عملية خاصة، وهى ان مسلمات الاخلاق كمعنى الحرية، وخلود النفس، ووجود الله متعلقة به." (صليبا، ١٩٨٢، المعجم الفلسفى،ج٢، ص ٨٩(

"ولان العقل هو القدرة التى تمنحنا مبادئ المعرفة القبلية، فان العقل المحض هو ذاك الذى يتضمن مبادئ معرفة شئ ما على نحو قبلى تماما" (كانط، ١٩٩٠، ص ٥٤)

يقول كانط فى مجال الأخلاق فان العقل الإنسانى، حتى عند أقل الناس حظًا من الفهم، يمكن أن يصل بسهولة ويسر إلى درجةٍ عالية من الصواب، بينما فى الاستعمال

النظرى الخالص فهو على العكس من ذلک، ديالكتيکى (جـدلىٌ) بحـت. "(كـانط، ۲۰۱۷، ص ۲۴)

وبحسب كانط فإن (الله) والحريۀ والخلود ،هى مشـكلات العقـل المحـض التـى لامفـر منها. والميتافيزيقا هو العلم الذى هدفه النهائى حل تلـک المشـكلات، ومنهجـه دغمائيـا، أى يحاول تحقيق الهدف دون ان يتفحص مسبقا قدرۀ العقل او عجزه امام مشروع ضخم كهذا (كانط، ۱۹۹۰، ص ۴۷)

۲ .نظريۀ المعرفۀ عند كانط Kantian epistemology

"كل معارفنا تبدأ مع التجربۀ، فانها مع ذلـک لاتنبثـق بأسـرها مـن التجربـۀ"(كـانط، ۱۹۹۰، ص ۴۵). لأن قدرتنا المعرفيۀ لن تستيقظ الا خلال موضوعات تصدم حواسنا، فتسـبب من جهۀ، حدوث التصورات تلقائيا، و من جهۀ أخرى، تحرک نشاط الفهم الى مقارنتها، وربطها أو فصلها، وبالتالى الى تحويل خـام الانطباعـات الحسـيۀ الـى معرفـۀ بالموضـوعات ،تسـمى التجربۀ. اذن يرى كانط أن المعرفۀ تبدأ مع التجربـۀ . لكـن وعلـى الـرغم مـن ذلـک، فانهـا لاتنبثق بأسرها منها (المصدر نفسه)

تتشكل المعرفۀ، من وجهۀ نظر كانط، بواسـطۀ الحاسـه والفاهمـه والعقـل . فالحـدوس الحسيّۀ التى تزوّدنا بها الملكۀ الحاسّۀ تمثلُ المنشأ الأول للخبرۀ الحسـيۀ والتـى مـن خلالهـا نتلقى الانطباعات الحسيۀ داخل صورتين قبليتين هما الزمان والمكان , وتحتل ملكۀ الفاهمـۀ مكانۀ وسطى متصلۀ بالحساسيۀ والعقل، أما العقل باعتباره القوۀ التى تنفصلُ عن عالم التجربۀ والحس فيعمل على تنظيم وربط هذه الانطباعات الحسيۀ وصولا الى تكـوين مفـاهيم. «غيـر أنّ هذه المُعطيات الحسيّۀ لا تكفى فى بناء معرفۀ صحيحۀ موسـومۀ بالكليّـۀ والضـرورۀ إنّهـا تحتاجُ إلى تنظيم وتأليف وربط ووصل وهو ما يقتضى تدخل العقل العارف أى ملكۀ المفـاهيم والمقولات أى الفهم». (فتح الدين، ۲۰۲۱، ص ۲۲۰)

المقولات القبليۀ وهى اثنتى عشرمقولۀ اهمها مقولتـا الزمـان والمكـان وهـى تصـورات عقليۀ غير مسبوقۀ بأى تجربۀ او خبرۀ، وهى بحسب كانط مقدمات يقينيـۀ موجـودۀ بالعقـل، تساعدنا على تنظيم ادراكاتنا الحسيۀ. وبرأى كانط فإن الانسان يحصل على المعرفۀ، بتـرابط العقل النظرى والحس؛ فتنقل الحـواس عـن العـالم الخـارجى . ومـا تسـتطيع أن تنقلـه مـن انطباعات هو فقط مايكون فى صورتى المكان والزمان القبليين، ثـم تنـتظم مـع غيرهـا مـن مقولات العقل، لنحصل على المعرفۀ.وتكون المعرفۀ بالموضوع كما يظهر لنا فى شكل مبادئ

العالم المحسوس والعالم المعقول لا كما هو فى ذاته (عبد الـرحمن، ٢٠١٧، ص٧٩٢) وبـذلک يكون كانط قد احدث ثورة فى نظرية المعرفـة حيـث حسـم الصـراع الـذى كـان دائـرا بـين المدرستين العقلية والتجريبية ليجعلها نتاج تظافرهما معا .

المعرفة عند كانط : أمبيرية، وقبلية

ويوضح كانط ان طبيعة المعارف القبلية هى تلک المستقلة تمامـا عـن التجربـة بعكـس الامبيرية "التى هى ممكنة بعديا وحسب، اعنى بالتجربة" (كانط، ١٩٩٠، ص٤٦)

أما (المحضه) فهى تلک "المعارف القبيلة التى لايخالطها أى شىء امبيرى البته. فقضية مثل : كل شىء له سبب، هى قضية قبلية انما ليست محضة. لان التغيير هو أفهوم يمكـن أن يستخرج من التجربة وحسب" (المصدر نفسه)

النومين والفينومينphenomena and noumena

لقد قسم كانط الموجودات إلى ماهيات وظـواهر، أوعالم الغيب والشـهود وهو يعتقـد ان إدراک الانسان يقتصرعلى معرفة الظواهر فقـط(phenomena) ، لان معرفـة الاشـياء فـى حقيقتها (noumena) مثل كافة الغيبيات كوجود الخالق عز وجل، الجنة والنار..الخ هـى أمـور فوق قدرة العقل والتجربة.

"العقل عند التجربيين لـيس لديـه صـور عقليـة قبـل التجربـة. يفـرض قوانينـه علـى الأشـياء، والاشكال القبلية للحواس" المقولات "،و المكـان والزمـان. والمعرفـة نسـبية،لا ّن الانسان لا يستطيع أن يعرف الاشياء فى ذاتها،بل يعرف الظواهرفقط.أى الاشـياء كمـا تظهـر لعقلنا من خلال الاشكال"(المصدر نفسه، ص ٤٩)

٣ .نظرية الاخلاق عند كانط:

) القانون الاساسى للعقل المحض العملى(

"افعل بحيث يمكن لمسلمة إرادتک أن تصح دائما وفى الوقت نفسه مبدأ تشريع عـام"(كانط، ٢٠٠٨، ص٨٣)

من وجهة نظر كانط، فإن السمة الوحيدة التى تمنح الفعل قيمة أخلاقية ليسـت النتيجـة التى يتم تحقيقها من خلال الفعل، ولكن الدافع وراء الفعل. وهـو يجـادل بـأن الـدافع الوحيـد الذى يمكن أن يمنح الفعل قيمة أخلاقية هو الدافع الذى ينشـأ مـن المبـادئ العالميـة التـى اكتشفها العقل. الحتمية القاطعة هى عبارة كانط الشهيرة عن هذا الواجب: "تصرف فقـط وفقًـا

لهذا المبدأ الذی يمكنک من خلاله فی نفس الوقت أن يصبح قانونا عالميا (Kant Metaphysics (Matt McCormick, Immanuel"

ذلک لان جميع هذه الاثار المترتبة على الفعل (مثل الرضى عن النفس، أوالعمل على اسعاد الغير) يمكن ايضا ان تنتج عن اسباب اخرى. بحيث لايكون هناک حاجة الى تحقق (ارادة الخير الاسمى والخير المطلق). من اجل ذلک كان تمثل القانون فی ذاته، لا الأثر المتوقع منه، هو المبدأ المحدد للارادة، ومن أجل ذلک، كان هذا التمثل وحده هو الذی يؤلف ذلک الخير الاسمى الذی نصفه بانه اخلاقی، ولا يصح لنا ان ننتظره من الاثر الناتج عن فعله .(كانط، ۲۰۱۷، ص ۵۳)

"يرى كانط ان الاخلاق يجب ان تكون قبليةapriori ، ويبرهن على ذلک من خلال الاعتبارات الثلاثة التالية:

أ- اولا أن كل المعانى (التصورات) الاخلاقية قبلية لايمكن أن تستخلص من أية معرفة تجريبية ومصدرها العقل.

ب- ان القبلية المطلقة للتصورات (او المعانى) الاخلاقية بوصفها مبادئ عالية ،هى وحدها القادرة على تامين مكانة هذه التصورات وضمان وظيفتها. لأن كل تجريبى يضاف اليها من شأنه أن يزيل – بالقدر نفسه – من تاثيرها الحق ومن القيمة المطلقة للافعال.

جـ - كل القوانين الاخلاقية يجب أن تستنبط من (التصور الكلى لكائن عاقل بوجه عام)، وإن الأخلاق ينبغى أن تقبل التطبيق على كل موجود عاقل بوجه عام . ومن هذا ينبغى أن تعالج بمعزل عن علم الانسان بوصفها فلسفة محضة (ميتافيزيقية) (بدوى، ۱۹۷۶، ص ۳۰).

لذا وفقا لكانط فان الضمير هو عقل عملى يملى على الانسان ماينبغى ومالاينبغى .وماهو خير اخلاقيا يفرض نفسه على هذا الضمير دون قيد او شرط، وعلينا ان نصنع الخير لاجل الخير لان الخير الاخلاقى خير فى ذاته . والقانون الاخلاقى لاعلاقة له بالجانب العاطفى فى الانسان كما زعم روسو وبعض مفكرى الانجليز فى النصف الثانى من القرن ۱۸؛ بل هو يصدر عن ارادة مسترشدة بالمعرفة، او بما يسميه كانط (المصدر نفسه، ص ۲۵)

يرى كانط بان الانسان هو من يشرع لنفسه هذا القانون الاخلاقى، يقول : "ولكن كيف لى أن أُطيع هذا الأمر الصارم المُطلَق، وكيف أَخضَع " لِينبغى" و" يجب " القاسيتَين، وأطرح

كل ميولى ودوافعى، وأَغُض النظر عن كل منفعةٍ قد تترتب على فعلى بينما أنا فى نفس الوقت كائنٌ حسى كما أنا كائنٌ عاقل؟ إن الجواب الوحيد على ذلك هو فى الحقيقة التى تقول إننى أنا الذى أشُرِّع لنفسى هذا القانون، وإننى أنا الذى أحُدِّد نفسى فى كل فعلٍ أُقْدِم عليه، وإن الاحترام الذى أحمِله للقانون الذى أشُرِّعه لنفسى هو وحده الذى يجعلنى أُنَفِّذ بالفعل ما يَأمُر به الأمر الأخلاقى المُطلَق بالعقل. إننى أعصِب عينى عن كل جزاءٍ يمكن أن يترتب عليه، وأزهَد فى كل منفعةٍ قد تأتينى منه، وأُلغى كل رغبةٍ أو أملٍ قد يتحقق من ورائه، ولا أقْدِم على الفعل إلا لأننى أجد أنه فعلٌ صحيح وحق فى ذاته" (كانط، ٢٠١٧، ص١١)

٤ .منشأ الواجب الأخلاقى

ومما سبق نستنتج أن (العقل العملى) هو مصدر الواجب الاخلاقى عند كانط . "الواجب هذه الكلمة السامية العظيمة" كما يقول كانط هو عصب الاخلاق كلها .

لانه الشعور بالالتزام تجاه القيم. وتجسيد السلوك المؤدى الى تحقيق الغايات الاخلاقية والدافع الباطن الى تنفيذ ماتقضى به الاخلاق" (بدوى، ١٩٧٦، ص ١٢٦)

يخبرنا كانط بان فعل الخير ينبغى ان يكون بدافع الواجب الاخلاقى فقط " الواجب هو ضرورة القيام بفعل عن احترام للقانون" (كانط، ٢٠١٧، تأسيس ميتافيزيقيا الاخلاق، ص٣٥) . فالقانون المُجرَّد فى ذاته هو وحده الذى يمكن أن يكون موضوعًا للاحترام، وبالتالى أمرًا أخلاقيًا"(المصدر نفسه، ص ٣٦)

ويعتقد كانط " ان فكرة الواجب لايمكن أن تفترض اى قسر غير ذلك الذى يمارسه الانسان على نفسه بنفسه فى التحديد الباطن للارادة" (بدوى ،١٩٧٦، ص ١٢٨)

كما لاحظنا فان ما يضفى على الارادة الخيرة صفة الخير ليس النتائج الخيرة بل هو الطابع الالزامى لفعل الخير عندما يأتى مطابقا للقانون الاخلاقى. (ابراهيم، ١٩٦٦، ص١٦٧) "ولهذا يقرر كانت ان صدور الفاعل الاخلاقى عن الشعور بالتعاطف او الرحمة او المحبة لايجعل للفعل ادنى قيمة خلقية" ! (المصدر نفسه، ص ١٦٩)

٥ .الميتافيزيقا والاخلاق عند كانط

يقول كانط عن الميتافيزيقا : نستطيع أن نسمى كل فلسفة تقوم على أسس من التجربة فلسفة مادية، وكل فلسفة تأخذ نظرياتها من مبادئ قبلية فلسفة خالصة. وهذه الاخيرة، حين تكون صورية فحسب تسمى منطقا، فان كانت مقصورة على موضوعات بعينها من موضوعات

الفهم فتسمى بالميتافيزيقا. على هذا النحو تتكون فكرة الميتافيزيقا مزدوجة، ميتافيزيقا الطبيعة وميتافيزيقا الاخلاق. وهكذا يكون للفيزيقا جانبها التجريبى بالاضافة الى الجانب العقلى ومثل ذلک الاخلاق وان كان من الممكن هنا ان يسمى الجانب التجريبى خاصة بالانثروبولوجيا العملية والجانب العقلى باسم الاخلاق (كانط، ۲۰۱۷، ص ۲۵-۲۶).

لقد أخرج كانط الميتافيزيقيا من طابعها التقليدى الموروث آنذاک ليسبغ عليها صبغة عملية أخلاقية غائية . وقد هاجم كانط الميتافيزيقيا التقليدية التى تحاول الوصول الى معرفة الاشياء فى ذاتها كما يقول مما يجعلها تقع فى التناقضات ."وبالتالى فإن الميتافيزيقيا بالنسبة لكانط تتعلق بمعرفة مسبقة، أو معرفة لا يعتمد تبريرها على الخبرة ؛ ويربط المعرفة المسبقة بالعقل (Ruhlf, 2010, Immanuel Kant) .

من جهة أخرى وضح الدكتور أحمد صبحى الفرق بين الاساس الميتافيزيقى فى كل من العقيدة الاسلامية والكانتيه كالتالى :«ان المشكلة الاخلاقية فى الفكر الدينى تتباين تماما مع النسق الكانتى فى دراسة الاخلاق، وليس التباين راجعا الى الاختلاف بين الميتافيزيقيا والدين إذ قد تتشابه موضوعاتهما، وإنما يرجع الاختلاف الى أن موضوعات ميتافيزيقا الاخلاق – وجود الله وحرية الارادة وخلود النفس – هى عند كانط مسلمات لا يصادر على التسليم بوجودها الا من اجل اقامة الاخلاق، بينما هذه الموضوعات محل ايمان – فى الاعتقاد الدينى – لغير ضرورة اخلاقية، فليست الاخلاق هى التى تقتضى وجودها إذ أن ذلک الوجود مستقل عن الاخلاق، ويمكن للعقل النظرى أن يستدل على ذاک الوجود» (صبحى، ۲۰۰۶، ص ۲۸)

حتى لو استنتجنا أن لدينا واجبات أخلاقية مستقلة عن المعتقد الدينى، لا يزال بإمكاننا الإصرار على مساهمة العقيدة الدينية لعيش حياة أخلاقية. وبعبارة أخرى، قد تدعم الممارسة الدينية حياتنا الأخلاقية بطرق مستقلة عن تحديد كيف يجب أن نتصرف . إن النقطة الواضحة هى أن الخوف من العقاب الإلهى يوفر دافعًا قويًا لفعل الصواب. فإذا كان السبب الوحيد لعدم الخضوع لإغراء القتل هو الخوف من الجحيم، إذًا يمكننا أن نكون سعداء لأن لدينا تلک المعتقدات الدينية (JEFFREY MORGAN, CAN WE HAVE ETHICS WITHOUT RELIGION?, CHAPTER 2, P: 23) !.

دور العقل والدين فى النظرية الأخلاقية الاسلامية من منظور العلامة الشيخ مصباح اليزدى "رض"

تمهيد : سيرة العالم الربانی العلامة سماحة الشيخ محمد تقی مصباح اليزدی

ولد سماحة الشيخ محمد تقی مصباح اليزدی عام ۱۳۱۳ هجرية شمسية (۱۹۳۵م) فی مدينة يزد الصحراوية. سافر الی النجف الاشرف لاكمال دراسة العلوم الاسلامية، و لضائقة مالية اضطر للهجرة الی قم المقدسة بعد عام واحد. شارک فی دروس الامام الخمينی الراحل (قدس سره) و فی الوقت ذاته تلقی دروسا فی تفسير القرآن الكريم و الشفاء لابن سينا و الاسفار لملاصدرا علی يد العلامة الطباطبائی (رحمة الله عليه) حضر دروس الفقه لاية الله بهجت (مد ظله العالی) لمدة ۱۵ عاماً بعد توقف دروس الامام الراحل(ره) بسبب نفيه الی خارج ايران تصدی سماحته لاجراء دراسات متعددة فی المباحث الاجتماعية فی الاسلام منها بحث الجهاد، كذلک القضاء و الحكومة الاسلامية .

كان لسماحته حضور فعال ايضا فی ساحة المواجهة مع النظام البهلوی البائد تمثلت فی التعاون مع الشهيد بهشتی و الشهيد قدوسی و حجة الاسلام و المسلمين رفسنجانی، و خلال ذلک قام باصدار نشرتی (البعثة) و (الانتقام) حتی انه كان متصديا لشؤون الطباعة و التوزيع للاصدار الثانی. قام برفقة آية الله جنتی، الشهيد بهشتی و الشهيد قدوسی بإدارة مدرسة المنتظرية للعلوم الدينية بقم المقدسة و ألقی فيها دروساً فی علم الفلسفة، علم الاخلاق، و علوم القرآن لمدة (۱۰) سنوات. بعد انتصار الثورة الاسلامية العظيمة و باسناد و تشجيع من الامام الخمينی(ره) قام بانشاء عدة مدارس و مؤسسات اهمها قسم التعليم فی مؤسسة فی طريق الحق و مؤسسة باقرالعلوم (ع). يرأس حاليا مؤسسة الامام الخمينی (ره) للتعليم و البحث العلمی فی قم المقدسة بتعيين من السيد القائد. انتخب عام ۱۳۶۹ هش (۱۹۹۰م) نائبا عن محافظة خوزستان فی مجلس خبراء القيادة، كما انتخب مؤخراً نائبا عن أهالی طهران فی المجلس المذكور. له مؤلفات و كتب عديدة فی الفلسفة الاسلامية والمقارنة والالهيات والاخلاق والعقيدة الاسلامية).راجع موقع آثار حضرة آية الله مصباح اليزدی https://mesbahyazdi.ir/node/2801)

۲ .أصول ومبانی نظرية الاخلاق فی الاسلام من منظورالعلامة مصباح اليزدی " رض"

أ- الواقعية: «الأصل الأوّل اللازم لتبيين النظام الأخلاقی فی الإسلام هو فی الحقيقة أصل معرفی يقول أنّ القيم الأخلاقية مؤسسة علی الواقعيات العينية، فالمفاهيم التی تستعمل

فی الأخلاق كمفاهيم قيمية ليست مستقلة عن المفاهيم النظرية و العينية، أی أنّها أيديولوجيا مبنية على الرؤية الكونية» (مصباح اليزدی، دون التاريخ، ص۲۹۲.)

ان المشكلة الخلقية مشكلة وجودية يواجهها المرء على مستوى الخبرة المعاشة وليست مجرد اشكال نظری بحت، أو مجرد بحث منطقی لغوی خالص (ابراهيم، ۱۹۶۶، ص۱۷) .

فی المذاهب الواقعية الاخلاقية والتی منها المذهب الاخلاقی فی الاسلام، نجد أن العلاقة بين أفعال الانسان الاختيارية الارادية وبين الغاية من هذه الافعال فی القضايا الاخلاقية تسمی علاقة ضرورة او(لزوم)، على خلاف المذاهب اللاواقعية كالمذهب الانفعالی والأمری والتعاقدی؛ والتی تقوم على الميولات والانفعالات والتعاقدات الاجتماعية كمنشأ للحكم الاخلاقی . يقول العلامة اليزدی حول الواقعية: «الأصل الأوّل اللازم لتبيين النظام الأخلاقی فی الإسلام هو فی الحقيقة أصل معرفی يقول أنّ القيم الأخلاقية مؤسسة على الواقعيات العينية، فالمفاهيم التی تستعمل فی الأخلاق كمفاهيم قيمية ليست مستقلة عن المفاهيم النظرية و العينية، أی أنّها أيديولوجيا مبنية على الرؤية الكونية»(راجع مصباح اليزدی، دون التاريخ، ص۲۹۲)

ومبحث الواقعية واللاواقعية هو القاعدة الاساس التی تقوم عليها كافة النظريات حول النسبية واللانسبية. (مجتبى مصباح، ۲۰۱۱، ص۳۷). «ويتبين مما سبق أن الادراک الاعتبارى ينشأ فی الواقع من حاجات حقيقية وواقعية للانسان هی احساساته الباطنية القائمة على العلم والادراک ويتوسل به تحقيق غايات واقعية، ومن هنا كان هذا الاعتبار يتوسط بين حقيقتين» (جابر، ۲۰۰۴، ص۱۳۳)

ب – علاقة الضرورة بالقياس وهو أصل فلسفی للعلاقة بين أفعال الأنسان الاختيارية و النتائج الحاصلة منها والتی هی من مصاديق هذه العلاقة، أی ان نتائج الأفعال الاختيارية معلولة للفعل الاختيارى و نسبة الفعل الاختيارى إليها هی على نحو الضرورة بالقياس، و ما "اللزوم" و "عدم اللزوم" الأخلاقی إلاّ تعبيرات لعلاقة الضرورة بالقياس (راجع مصباح اليزدی، دون التاريخ، ص۲۹۲)

»مصدر الحكم الاخلاقی هو العقل الكاشف عن توقف الغاية على الفعل الذی يعبر عنه بالوجوب. وهو فی الواقع أحد مصاديق الضرورة بالقياس، ويختص بالطابع القيمی»(مصباح اليزدی، دون التاريخ، ص ۴۱)

جـ – أصالة الروح

يقول مولى المتقين عليه السلام "قرة عينه فيما لايفنى"، ان هذا الاصل له علاقه بالسيكولوجيا الفلسفية او علم النفس الفلسفى (مصباح اليزدى، دون التاريخ، ص۲۹۳). إن اهمال البعد الروحى والذى يمثل البعد اللانهائى للانسان كما حدث فى بعض المذاهب الاخلاقية المادية له تبعاته الخطيره على سعادة الانسان. وهذه الروح – الاصيله – لها قابلية واستعداد للتكامل من جهة، و من جهة أخرى هى فى حركة اشتدادية دائمة نحوهذا الكمال «ياأَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّکَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّکَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ» (الانشقاق/۶.)فالنفس فى الأساس هى موجود يحمل داخله ميلا نحو الكمال إلى اللانهاية، إلاّ أنّها يمكن أن لا تعرف كمالها هذا» (المصدر نفسه)

وحول مراتب الروح يقول العلامه اليزدى "للروح مراتب طولية وشؤون عرضية، فالنفس و مع أنّها موجود واحد بسيط و لكنّها وجود ذو مراتب ...و لها على الأقل فى بعض المراتب شؤونا مختلفة و يمكن أن يكون فى جميع المراتب كذلک" (المصدر نفسه) .

د– دور الاختيار ودور النية فى تكامل الانسان وتناسبها مع شكل العمل «تكامل الروح يحدث إثر الأفعال الاختيارية لها، لأنّنا كنّا قد قلنا أنّ هناک ميلا إلى الكمال يكمن فى ذات الروح، و هذا الميل يظهر على شكل إرادة، فما يتعلّق بذات النفس ينبع من هذه الإرادة، والكمالات التى تكون من نصيبها تتحقق فى ظلّ هذه الإرادة» (راجع مصباح اليزدى، دون التاريخ، ص۲۹۴)

نستخلص من هذا الأصل النتيجة التالية وهى أنّ الأفعال الأخلاقية التى يكون موضوعها الفعل الاختيارى للإنسان و اعتبرت فيها الإرادة فهى تؤدّى إلى كمال الإنسان عن طريق نفس تلک الإرادة، أى أنّ روح الأفعال الاختيارية هى النيّة، فدافع النفس للقيام بهذا العمل هو أمر ينبع من النفس، و ذلک الالتفات الذى يصدر عن النفس و يصبح دافعا لأن توظف البدن و يقوم بعمل ما هو نفسه الذى يعطى قيمة للعمل و يجعله مؤثرا لكى يحصل للنفس كمال. (راجع المصدر نفسه، ص۲۹۹)

تاثير النية حقيقى : «ان ماتتركه النية على العمل من تاثير فى تكامل النفس ووصول الانسان الى السعادة تاثير حقيقى وتكوينى لا تعاقدى ... فالنية ذات علاقة تكوينية مع ذلک العمل وتمده بالحياة، فالعمل الفاقد للنية جثة ميتة فى الحقيقة، لا تجد ارتباطا مع قلب العامل وروحه ولا تعطى ثمرة للعامل نفسه" (مصباح اليزدى، ۲۰۰۴، ج۱، ص۱۱۳). ان الاعمال

التی تنجزها خارجا انما تتحقق علاقتها مع كمال النفس بفضل النيۀ والدافع الـذی ينشـأ مـن النفس ويتعلق بذلک العمل، وعليه فالعمل الذی يفقد النيۀ الصالحۀ لايستوجب كمالا للـنفس، ولذا قال تعالی :« وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَـاءَ وَجْـهِ اللَّـه » (البقـرۀ/ ۲۷۲) » (المصدر نفسه، ص۱۱۳-۱۱۴)

۶ .نقد العلامۀ الشيخ مصباح اليزدی "رض" على نظريۀ كانط الاخلاقيۀ

»نظريۀ كانط الاخلاقيۀ هی من النظريات الوظيفيۀ لا النظريـات الغائيـۀ، أی أن كـانط يعتقد أن القاعدۀ القيمۀ الاخلاقيۀ للاعمال الاختياريۀ للانسان ليس نتاج ومعلولۀ نتائجها، بل معلولۀ استند اليها فاعلها، وهذه القاعدۀ لا بد أن تكون ناشئۀ عن طاعۀ القانون واحترامه لكی تمنح أعماله القيمۀ الاخلاقيۀ». (مصباح اليزدی، دون التاريخ، ص۲۴۴)

۱ -مكانۀ النيّۀ فی فلسفۀ كانط الأخلاقيۀ : أهم مسألۀ دار حولهـا نقـد العلامـه اليـزدی هی مسألۀ النيۀ التی أولاها كانط اهتماما بالغا . يرى كانط أنّ الفعل الأخلاقی هو الفعل الذی تّم القيام به بدافع طاعۀ حكم قانون العقل. فعلی الرغم من انـه أولـی لمسـألۀ حسـن الفاعـل أهمّيۀ كبيرۀ ،الا انه ضيّع البوصلۀ فيما يخصّ متعلّق النيّۀ، حيث يقـول أن متعلّـق النيّـۀ هـو احترام قانون العقل (المصدرنفسه، ص ۲۵۳-۲۵۴)

كانط جعل نيۀ امتثال الواجب الاخلاقی الصادرۀ عن ارادۀ احترام حكـم العقـل الخـالص مصدرا لها، معتبرا عن ان ای نيۀ اخرى مزاحمۀ لها، ستكون موجبۀ لاسقاط القيمۀ الاخلاقيـۀ لارادۀ الخير التی يستمد الفعل الاخلاقی قيمته منها. ولقد كان تعليق العلامه المصباح اليـزدی "رض" موافقا لكانط فی مسالۀ النيۀ الا انه مفارقا له فی مسألۀ التركيزعلی نيۀ احترام القانون، حيث أن ارادۀ وجه الله عز اسمه وابتغاء مرضاته هی فوق ارادۀ حكم العقـل (مصـباح اليـزدی، دون التاريخ ب، ص ۲۳)؛ وهذا ماكشف عنه كانط نفسه فی فلسـفته الاخلاقيـۀ، حـين عـاد ليجعل (الله عزاسمه) علۀ لايمكن الفكاک منها بعد أن جعل (الخيرالاسمی) هو مصدرا للحكم الاخلاقی ! ؛ مبررا ذلک بضرورۀ وجود مسوغ للتضحيات من اجل الواجب المقـدس، فبحسـب رؤيۀ كانط فان تأديۀ الواجب والمسؤوليۀ عن تأديته أو عدم تأديته لا معنـی لـه مـا لـم يكـن الإنسان حرا؛ ليختار هذا الواجب ويُضحی بكل شیء فی سبيله، ولا معنـی فـی النهايـۀ لهـذه التضحيۀ، إلا فی سعادۀ كاملۀ يحصل عليها الإنسان فی حياۀ أخرى، وهی حياۀ غيـر ممكنـۀ

إذا لم يكن الله موجوداً ،إن البرهان الأخلاقـى علـى وجـود الله فـرض لا تسـتقيم الأخـلاق الكانطيةُ إلا به. (الحيدرى، ۲۰۱۸، ص ۴)

ثم أن وجود بعض النيات (الطوليةُ والعرضيةُ) كما يعبـر العلامـه المصـباح يزيـد الفعـل الاخلاقى فضيله، فضلا عن انها لا تضر باصل نيـةُ احتـرام قـانون العقـل «بـل نقـول بعـدم انفكاک هذه عن تلک أبدا» (مصباح اليزدى، دون التاريخ ب، ص ۲۳)

لقد وضع العلامه مصباح اليزدى يده على أهم مفصل فى فلسفةُ كانط الاخلاقيةُ والتـى شكلت نقطةُ ضعف كبيرةُ فى نظريته الاخلاقيـةُ "أن نظريـةُ كـانط لاتنطـوى علـى تبيـين فلسفى لارتباط النيةُ بالقيمةُ" (المصدر نفسه، ص ۲۵) ؛ وهذا المفصل الهام يدور حول علاقـةُ كل من النيةُ بقيمةُ الفعل الاخلاقى، وعلاقةُ الارادةُ بالعقل العملى والنظرى .

وخلاصتها فى كلام العلامه اليزدى " رض": «ان الفعل الارادى لا بد ان تسبقه رغبـةُ فطريةُ تتبلور فى الارادةُ، وان شأن العقل كقوةُ مدركةُ ينحصر فى الهدايةُ وإراءةُ الطريـق، وان مجاله غير مجال الارادةُ ومبادئها. فارادةُ طاعةُ العقل لابد ان وان تنشأ من رغبةُ فطريةُ، وهى لاتكون الا الرغبةُ فى الكمال والسعادةُ. فهذه النيةُ هى الرصيد الاعمق لكـل فعـل يـؤتى بـه على ضوء العقل»(المصدر نفسه، ص ۲۴)

ويمكننا تلخيص هذا البند كالتالى : ان النيةُ عبارةُ عن الداعى المشعور بـه المـؤثر فـى ارادةُ الفعل، وأن القيمةُ الخلقيةُ تكمن فى الارادةُ الحرةُ للجانب الـذى يفتـى بـه العقـل.، وان الارادةُ مسبوقةُ برغبةُ فطريةُ تنبعث فى النفس وتشكل داعيا الـى تـرجيح جانـب خـاص مـن الفعل. وعليه فان للنيةُ سببيةُ ذاتيةُ لحصول القيمةُ الخلقيةُ فى الفعل (المصدر نفسه، ص ۲۶)

۲ -اعتباره أحكام العقل العملى قبليةُ هو قول باطل: يؤكّد كانط أنّ لدينا مجموعـةُ مـن الأحكام البديهيةُ العمليةُ التى لاترتبط لا بأحكام العقل النظرى و لا بالتجربةُ بحيث تؤخذ مـن الخارج، بل هى أحكام قبليةُ و متقدّمةُ . و لكن هل لدينا فعلا أحكاما للعقـل العملـى مسـتقلّةُ عن التجربةُ ؟ ما هو فى الأساس الاختلاف بين العقل العملـى و العقـل النظريـةُ ؟ ويسـتطرد العلامه المصباح : لقد كان حاصل بحثنا أنّه

ليس لدينا نوعين من العقل، و إذا جرى الكلام عن العقل العملى و العقل النظـرى فهـو فقط من جهةُ تعدّد مدركات العقل، لهذا فإنّ أحكام العقل العملى ليست مسـتقلّةُ عـن أحكـام العقل النظرى . على سبيل المثال ؛ أحد أعمّ أحكام العقل العملى من حيث المبنى هـو حسـن

العدل و قبح الظلم، هذين الحكمين من بين الاحكام الأخلاقيةُ الأكثر إطلاقا و عموما، فإذا قمنا بتحليل هذين الحكمين سنجد أنّ مفاهيم العقل العملی ليست مستقلةً عن مفاهيم العقل النظری (مصباح اليزدی، دون التاريخ، ص۲۵۴– ۲۵۵)

۳ –علاقةُ ارادةُ الفعل بحكم العقل : واستكمالا للنقطةُ السابقةُ علل العلامةُ المصباح جذور المسألةُ فی علاقةُ الارادةُ بحكم العقل بضرورةُ حصول العلم (وهی من شئون العقل النظری) كشرط فی تحقق الارادةُ (وهی من شئون العقل العملی)، فان العمل الارادی لايتم بدون العلم التصوری والتصديقی، ولكن ليس للعلم والادراک سوی الكشف والهدايةُ، فليس له دور فی ايجاد الداعی والباعث بحقيقةُ معنی الكلمةُ (كما تصور كانط) . فلابد من كون الفعل ذريعةُ لارضاء رغبةُ كامنةُ فی النفس تتبلور فی ارادةُ الفعل على ضوء العلم وهدايةُ العقل، فلا يكفی حكم العقل – نظريا أوعمليا– لانبعات الرغبةُ وتحقق الارادةُ. (مصباح اليزدی، دون التاريخ ب، ص ۲۱)

»والذی نركز عليه أن جميع الافعال الارادية مسبوقةُ بميول فطريةُ ومنتهيةُ الی رغبات كامنةُ فی النفس تنبعث بنوع من انواع المنبهات الداخليةُ او الخارجيةُ سواء كانت الرغبةُ متعلقةُ بأعضاء البدن أو بقوی الروح« (مصباح اليزدی، دون التاريخ ب، ص ۲۱)

–4 قيمةُ الفعل الاخلاقی : وعليه وخلافا لرأی كانط الذی يری بأن قيمةُ الافعال الاخلاقيةُ تكمن فی الطابع الالزامی لارادةُ الخيرالصادرعن املاء العقل العملی، يعلق العلامه المصباح: " ان ارادةُ طاعةُ العقل ليست الا مظهرا من مظاهر الرغبةُ فی الكمال والسعادةُ فلا يصح عدها نيةُ مستقلةُ وداعيا مؤثرا لوحده فی ارادةُ الفعل الاخلاقی؛ فضلا عن ان تعد معارضةُ لنيةُ الكمال، بل ان رصيد القيم

الخلقيةُ الحقيقيةُ هو نيةُ الوصول الی الكمال الانسانی بترجيح الرغبةُ الخاصةُ به على سائر الرغبات" (المصدر نفسه، ص ۲۴–۲۵)

وفی العبارةُ الاخيرةُ للعلامه "بترجيح الرغبةُ الخاصه به على سائر الرغبات"، تبرز أهميةُ عامل الاختيار الحر فی الوصول الی الكمال، عند الترجيح بين رغبات النفس المتصارعه والتی يمتحن فيها الانسان فی الاختيار بين الخير والشر او بين الحسن والاحسن .

والخلاصةُ، ان ارادةُ العمل وفق مايحكم به العقل ناشئ عن رغبةُ فطريةُ، وليس فی النفس رغبةُ خاصةُ لاطاعةُ العقل بل هی رغبةُ فی الكمال الذی يحدده العقل (المصدر نفسه،

ص ۲۵). «والسر فی ذلک یکمن فی أن قیمة الافعال الاخلاقیة لیست ذاتیة لنفس العنوانین بل هی معللة بالغایات المترتبة علیها وهذا بدوره یرجع الی عدم استقلال الاحکام العملیة عن النظریات» (مصباح الیزدی، دون التاریخ ب، ص ۸)

۵ -أحکام مخالفة للفطرة : وفقا لکانط إذا استوجب قول الصدق قتل الآلاف من الأبریاء فهو عمل حسن و وظیفتنا هی أن لا نتخلّف عنه، وهذا الحکم کما هو واضح مخالف للعقل و الفطرة الإنسانیة، و قد ادّعی کانط نفسه أنّ أحکام العقل العملی هی أحکام بدیهیة و جمیع النّاس یدرکونها، و لکنّنا نعلم جلیّا أنّ جمیع البشر یعتبرون الصدق فی حالات کهذه التی تؤدّی إلی قتل النّاس البرآء قبیحا ؛ وسرّ المسألة هو أنّ حسن الصدق لیس مستقلا عن الأحکام النظریة و التجریبیة، فالوظائفیة الکانطیة تسوق إلی قبول هذا الحکم اللامعقول و المخالف للفطرة، لهذا، من أجل معرفة الأحکام الأخلاقیة للأفعال الاختیاریة لا بدّ من معرفة المصالح و المفاسد الواقعیة و الحقیقیة.

۶ -العلاقة بین التکلیف و الواقع : وفقا لکانط فأنّ أحد الشروط اللازمة للفعل الأخلاقی هو أن یکون مطابقا للتکلیف و الوظیفة، و لکنّ السؤال هو ؛ ما هی الوظیفة ؟ من أین تنشأ، و کیف یجب تشخیصها ؟ کانط یری أنّها من بدیهیات العقل العملی، فتصوّرها و التصدیق بلزوم اتباع الوظیفة بدیهی، یعنی أنّ الحکم بأنّه"یجب العمل طبقا للوظیفة " هو حکم بدیهی، و لکنّنا إذا دقّقنا فی هذه القضیة جیّدا، فهی فی الحقیقة قضیة حشویة لاتضیف لنا معرفة جدیدة (العلامه مصباح الیزدی، دون التاریخ، ص ۲۵۶-۲۵۷). «لیس للعقل حکم بمعنی الامر والالزام، بل انما هو ادراک للرابطة بین الفعل وغایته» (مصباح الیزدی، دون التاریخ ب، ص ۲۵)، فما لم نصل إلی العلاقة بین الفعل الاختیاری و غایته لا نستطیع أن نحکم بحسن أو قبح ذلک الحکم . (مصباح الیزدی، دون التاریخ، ص ۲۵۷ -۲۵۸)

۷ -عدم کفایة المعیار : «یعتقد کانط أنّ معیار کون عمل ما أخلاقی هو قابلیة تعمیم القاعدة التی تمّ القیام بالعمل علی أساسها، فی حین أنّ قابلیة تعمیم قاعدة ما فی نفسه لا یضمن کونها أخلاقیة» (المصدر نفسه، ص ۲۶۰)

۸- عدم تقدیم حلّ لحالات التزاحم: أنّ الوظائف الأخلاقیة بحسب ادعاء کانط مطلقة کلّها و لا تقبل أیّ استثناء أبدا، فی حین هناک حالات تتعارض فیها وظائفنا مع بعضها البعض؛ فلو اتّفقنا أنّ الکذب و نقض العهود خصال غیر صحیحة دائما و فی کلّ الحالات، و

تحتّم على أحدهم الكذب من أجل الوفاء بالعهد والالتزام به، ماذا عليه أن يفعل ؟.... للأسف النظريۀ الأخلاقيۀ لكانط ليس لديها أی حلّ لمعضلۀ كهذه (مصباح اليزدی، دون التاريخ، ص۲۶۰)

۹ -ضيق أفقها وان كان هذا النقد ليس نقدا مبنائيا كما يقول العلامه اليزدی نفسه ولكنه يكشف عن أحد الانتقادات المهمۀ التی يمكن توجيهها للنظريۀ الأخلاقيۀ لكانط حيث يمكن القول حسب المبنی الكانتی القائم على مبدأ الواجب لاجل الواجب، ان الفعل الاخلاقی سوف يكون قليلا جدّا فی العالم، «هناک اناس قليلون جدا يقومون بافعالهم بدافع اتباع القانون» (المصدر نفسه، ص ۲۵۳-۲۵۴)

۱۰ -معيار مفرط : يشكل على نظريۀ كانط الأخلاقيۀ إفراطها فی الأطلاق، فقد كان يعتقد أنّ الأحكام الأخلاقيۀ ثابتۀ دائما و للجميع و لا استثناء فيها (المصدر نفسه ،ص۲۵۴) . وهذا الافراط يعود الى قاعدۀ ان الظروف لاتغير حقيقۀ حسن الصدق وقبح الكذب (على سبيل المثال) مهما كانت الظروف، اذ علينا اداء تكليفنا الذی يمليه علينا الواجب الاخلاقی كما يدعی كانط ،وهی كما نلحظ نتيجۀ طبيعيۀ لنظريته القائمۀ على الحسن الفاعلی مع غض الطرف عن النتيجۀ المترتبه على الفعل، مما قد يحولها بلا شک فی ظروفا استثنائيۀ من الاخلاقيۀ المثاليۀ المفرطۀ الى اللااخلاقيۀ بدافع اتباع الواجب الاخلاقی!

»و الحقّ أنّه لا يمكن فهم حسن الصدق و الأفعال الاختياريۀ الأخری للإنسان دون الانتباه لنتيجتها و غايتها، فالصدق حسن عندما يحقّق المصالح الواقعيۀ و الحقيقيۀ للفرد و المجتمع، و الكذب قبيح إذا أدّی إلى المفسدۀ الفرديۀ و الاجتماعيۀ الواقعيۀ و أعاق الإنسان عن الوصل إلى كماله النهائی و الواقعی» (المصدر نفسه ،ص۲۵۷)

من جهۀ اخری لخص الدكتور محمد على محيطی اردكان الانتقادات على نظريۀ كانط فی مقالۀ مميزۀ تناقش البعد الانطولوجی لفلسفۀ كانط الاخلاقيۀ نشرت فی مجلۀ الدليل – العدد ۳، لسنه الاولی، ۲۰۱۸- يقول فيها:

«من اهم الانتقادات الواردۀ على رؤيۀ كانط فی مجال اللاهوت الفلسفی هی: بقاء الشكوكيۀ، وهبوط مقام العقل النظری، وعدم القدرۀ على التبيين الصحيح لمفاهيم من قبيل العليۀ، والخطأ فی فهم الهليات البسيطۀ وحكايتها عن الواقع، والاستقراء الناقص لمصادر المعرفۀ، والخطأ فی تعيين حدود المعرفۀ الحسيۀ، وعدم ادراک حقيقۀ العلم الحضوری،

والوقوع فى فخ المثالية، وعدم نجاح فى تفسير المنطقى للعلاقة المعرفية بين النومينون والفينومينون، والفهم الناقص غير الصحيح لبراهين إثبات وجود الإله- بخاصة البرهانن الوجودى» (أردكان، ٢٠١٨، ص٢٩)

صنف الدكتور أردكان الانتقادات على نظرية كانط الى صنفين عام وخاص ؛ أما العام فقد وجه الى النظام المعرفى لنظرية كانط، من حيث انها تشكل الاساس الذى انطلقت منه رؤية كانط الفلسفية .

وحول الانتقادات العامة نجد أن كانط يرى بان النظام المعرفى للانسان يستطيع ادراك ظواهر الاشياء فقط (الفينومينون) « لان لها وجودا فينا (in-us)فيمكن التعرف عليها،بخلاف الاشياء فى نفسها؛ إذ إن وجودا فى نفسها(in- themselves) ؛ فلا تقع متعلقا لمعرفة) "أردكان، ٢٠١٨، ص ١٥٧،عن Critique of Pure 62 B= 44 A, Reason, 30 . (Aوعلى اساس هذه الرؤية لايمكن فى اطار العقل النظرى معرفة الاله حتى لو كان وجودا خارجيا "لانه من جنس النومين لا من جنس الفينومين» (المصدر نفسه)

«إن تأثيرهذا التمايز فى التفكيك بين (الدين) و(فهم الانسان للدين) واضح للعيان، فالدين أمر من قبيل (الاشياء فى نفسها)، وهو ليس فى متناول يد المعرفة فلا يمكن الحصول عليه، وان فهم الانسان للدين كظاهرة لا يمكن تقديسها واضفاء الصبغة الالهية عليها باى شكل من الاشكال. ويبدو أن نظريات مثل القبض والبسط فى الشريعة وقعت تحت تاثير فكر كانط أو أشباهه. ويمكن عد الافكار المناوئة للعقل أو تلك التى تقلل من شأنه فى تبيين التعاليم الدينية، وكذا النظرة السطحية التى تصور الدين بأنه قضايا فقهية وعبادية صرفة نظرة ناجمة عن إهمال العقل النظرى وتحجيم دوره وهى بالتالى متأثرة بأفكار كانط وأمثاله» (أردكان، ٢٠١٨، ص١٤٨)

وفى علاقة ماسبق بنظرية المعرفة الكانتية، نجد ان كانط يعتقد بأن العقل يستخدم مفاهيم مثل النفس والاله والعالم والتى لها دور فى توحيد المعارف الانسانية استخداما تنظيميا لا تاسيسيا، فان تصور وجود الاله الاكمل والاكثر حقيقة ناجم عن تحليقات عالية للعقل الانسانى) المصدر نفسه، ص ١٥٨، عن كانط نقد العقل المحض ؛ Kant, Critique of Pure Reason, A 321- A 332 =B 378- B 389)

وكما ذكرنا سابقا، فان كانط يقبل وجود الاله بحكم العقل العملی و يعتقد بان وجود الاله وخلود النفس ووجود العالم الاخر يلازم القبول بالاحكام الاخلاقية واحكام العقل العملی تشمل هذه الاصول بالدلالة الضمنية. وفی ضوء هذه الرؤية فهو يعتقد بان القبول بوجود الاله أمر باطنی قائم على أساس الضرورة الاخلاقية، ولهذا السبب يرى ان الاخلاق ايضا ليست مبنية على الدين، كما ان الانسان لايحتاج الى الدين من اجل تنظيم سلوكياته) المصدر نفسه، ص ۱۶۴، عن (Kant, Religion within the Limits ofReason Alone, P.3

أما الانتقادات الخاصة فهی لخصوص البراهين التی قدمها كانط حول وجود الاله .

»لقد اعتقد كانط مخطئا بانه استنفد جميع طرق اثبات الاله التی حصرها فی البراهين الثلاثة (البرهان الوجودی، والبرهان الطبيعی- الكلامی، وبرهان الإمكان) نافيا دور العقل فی معرفة الاله رغم ان هناک عدة صياغات للبرهان الوجودی لاثبات الاله ولاتنحصر البراهين فی الثلاثة المذكورة كما انها لاتنحصر فی صياغات كانط لهذه البراهين . ونتيجة عدم الضرورة المنطقية لقضايا من قبيل الاله موجود ليس هو نفی وجود الواجب؛ لانه على اساس برهان الامكان والوجوب بمجرد الخروج من السفسطة والشک، يثبت واجب الوجود فی الخارج.... وعلى اساس برهان الصديقين الذی طرح فی الفلسفة الاسلامية فان ضرورة وجود الله – سبحانه- هی ضرورة ازلية»(اردكان، ۲۰۱۸، ص ۱۷۳) .

المصادر:

القرآن الكريم

۱. ابراهيم، زكريا،۱۹۶۶، المشكله الخلقية، مشكلات فلسفية ۶، دار مصر للطباعة

۲. اليزدى، العلامه الشيخ محمد تقى مصباح،۲۰۰۴، الاخلاق فى القرآن،ج۱ ت: كاظم صالحى، بيروت، دار التعارف للمطبوعات

۳. اليزدى العلامه الشيخ محمد تقى مصباح،۲۰۰۵، دروس فى العقيده الاسلامية، بيروت، مكتبة المعارف الاسلامية، ط۱

۴. اليزدى، العلامه الشيخ محمد تقى مصباح، دون التاريخ ب، كلمة حول فلسفة الاخلاق، مؤسسه در راه حق و اصول دين، مدرسة الشيعه الالكترونية

۵. اليزدى، العلامه الشيخ محمد تقى مصباح، دون التاريخ، نقد وتحليل المذاهب الاخلاقية، قم المقدسة، جامعة المصطفى

۶. بدوى ،د.عبد الرحمن، ۱۹۸۴، الموسوعة الفلسفية، الجزء ۲، .بيروت ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط۱

۷. بدوى ،د.عبد الرحمن، ۱۹۷۶، الاخلاق النظرية، الكويت، وكالة المطبوعات، ط،۲

۸. جابر، شيخ على، ۲۰۰۴، ظرية المعرفة عند الفلاسفة المسلمين،ب يروت، دار الهادى، ط۱

۹. دراز، د.محمد عبد الله،۲۰۰۶، دستور الاخلاق فى القران، مؤسسة الرسالة

۱۰. صبحى، د. أحمد، ۲۰۰۶، الفلسفة الاخلاقية فى الفكر الاسلامى العقليون والذوقيون أوالنظر والعمل ،القاهره، دار المعارف ،ط۲

۱۱. صليبا، د. جميل، ۱۹۸۱، المعجم الفلسفى، بيروت ،دار الكتاب اللبنانى

۱۲. عبد اللطيف فتح الدين،۲۰۲۱، فلسفة المعرفة عند كانط: نظرية المكان والزمان، طنجة، دار سليكى أخوين، ط۱

۱۳. كانط، ايمانويل،۲۰۱۷، تأسيس ميتافيزيقا الاخلاق، ترجمة عبد الغفار مكاوى، المملكة المتحدة،ط۲

۱۴. كانط، ايمانويل،۱۹۹۰، نقد العقل المحض،موسى وهبه، بيروت، مركز الانماء القومى ،ط۱

۱۵. كانط، ايمانويل، ۲۰۰۸، نقد العقل العملى،ت: غانم هنا، بيروت، ط۱

۱۶. مصباح، شيخ مجتبى، ۲۰۰۲، فلسفۀ الاخلاق دراسۀ مقارنۀ، ترجمۀ محمد حسن زراقط، بيروت لبنان، ط۱

۱۷. مصباح، مجتبى ، ۲۰۱۱، اسس الاخلاق، بيروت، جمعيۀ المعارف الاسلاميۀ الثقافيۀ، ط۱

مقالات

۱. اردكان، د. محمد على محيطى، ۲۰۱۸، دراسۀ نقديّۀ للآراء النافيۀ لدور العقل فى معرفۀ الإله.. كانط نموذجًا، مجلۀ الدليل، دراسات ،السنۀ الاولى، العدد۳.

۲. الحيدرى، احسان، ۲۰۱۸، العلاقۀ الجدليۀ بين الدين والأخلاق فى فلسفۀ كانط النقديۀ،الآداب-جامعۀ بغداد

۳. عبد الرحمن، عايده عبد الحميد ،نظريۀ المعرفۀ عند كانط ،۲۰۱۷، حوليۀ كليۀ أصول الدين بالقاهرۀ، المقالۀ ۶، المجلد ۳۰، العدد ۳۰ الجزء۲، الصفحۀ ۷۴۱- ۸۱۰

مصادر انجليزيۀ

1. McCormick, Matt. Immanuel Kant: Metaphysics, California State University, Sacramento U. S. A: https://iep.utm.edu/kantmeta/

2. Rohlf , Michael. 2010, Immanuel Kant, First published,: https://plato.stanford.edu/entries/kant/

3. MORGAN, JEFFREY. CAN WE HAVE ETHICS WITHOUT RELIGION? CHAPTER, 2:

4.http://klangable.com/uploads/books/Introduction-to-Philosophy-Ethics-1597928612.pdf